﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجَمْعُ بين وصْفِ العذابِ وأهوالِه، وبين اسْتِبشارِ المُنْحرفين بمَعْصيتِهم

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عمّا كان من أمر لوطٍ الطّاهرِ هو ومن معه ونجاتِهم منَ القومِ المُجرمين، ولمّا كانَ قد أجمل الكلامَ على قومِه الأرجاسِ شرعَ في تفصيلِ الكلامِ عليهم فبدأ بما كان عندما رأوا ملائكةَ اللّه، فجاءت هذه الآيةُ.

وأيضًا لمّا تمَّ ما دار بينه وبين الرُّسل مقدّمًا لِما بيّن، أتبعه البيانُ عن تفصيلِ حال قومه[1] بعدَ بيانِ نهايتِهم التي كانوا عليها، وهو أسلوب بلاغيٌّ فريد.

وأيضًا جاءت هذه الآيةُ للشروع في حكاية ما صدرَ منَ القومِ عند وقوفِهم على مكان الأضياف منَ الفعل وما ترتّبَ عليه ممّا أُشير إليه أوّلًا على سبيل الإجمالِ، وهذا مقدّمٌ وقوعًا على العلم بهلاكِهم، والواو لا تفيدُ التّرتيبَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أقبلَ القومُ يَسْتبشِرون بفعْلِ المُنْكراتِ في ضيوفِ لوطٍ دون حياءٍ

يُخبر اللّه تعالى أنَّ أهلَ مدينةِ قَومِ لوطٍ قد جاؤوا إلى بيتِ لوطٍ فَرِحينَ مَسرورينَ، يُبَشِّرُ بَعضُهم بعضًا بقُدوم أضيافِ لوطٍ؛ طَمعًا في فِعلِ الفاحشةِ بهم، قال لوطٌ لِقَومِه: إنَّ هؤلاء الذين تُريدونَ فِعلَ الفاحِشةِ بهم ضُيوفي، وحَقٌّ على الرجُلِ إكرامُ ضُيوفِه، فلا تَفضَحوني في ضُيوفي بتعاطي ذلك الفِعلِ القَبيحِ، فيَلحَقَني العارُ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73 - 74.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/314.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/90، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/489، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ التّعْبير بلفْظِ ﴿أَهۡلُ﴾:

الرَّحمُ على الحقيقة، من يَربطُنا بأصحابِها، الإيمانُ والعملُ الصّالحُ

قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفيه فإنّه لمّا قال الله تعالى في حقِّ لوطٍ ﷺ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾، قابلَ الكافرين المُنحرفين بقولِه ﴿أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مع أنَّهم كانوا في بلدةٍ واحدةٍ للإيذان بخصوصيَّةِ أهلِ لوطٍ عن أهلِ المدينةِ وتمايزِهم بسببِ إيمانِهم واتِّباعِهم لوطًا ﷺ وبسببِ بعدِهم عنِ الفواحشِ واجتنابِهم لها، فنسبَ المؤمنين إلى لوطٍ تشريفًا وتكريمًا ونسبَ الكافرين إلى المدينةِ التي يقعُ فيها المنكرُ، ولمّا أضافَهم إلى المدينةِ لحقَ بها ما لحقَ بأهلِها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالإضافة في﴿أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

اللّائقُ بأهلِ المدينةِ أن يُكرموا الغرباءَ

لمّا أضيف ﴿أَهۡلُ﴾ إلى ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أفاد العمومَ بمعنى الكثرةِ؛ للإشارةِ إلى كثرتِهم مقارنةً مع المؤمنين من أتباع لوطٍ ﷺ، وفي الإضافة إشارةٌ إلى فظاعةِ فعلِهم، فإنَّ اللّائقَ بأهل المدينةِ أنْ يُكرموا الغرباءَ الواردين على مدينتِهم ويُحسنوا المعاملةَ معهم فهم عدَلوا عن هذا اللّائقِ مع من حَسبوهم غرباءَ واردين إلى قصْدِ الفاحشةِ التي ما سبقَهم بها أحدٌ منَ العالمين[1].

فائدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

المدينةُ هنا رمزُ الضّلالةِ والسّفاهةِ والانحطاطِ

(ال) هنا تفيدُ العهدَ العلميَّ، بمعنى المدينةِ التي كان قومُ لوطٍ يفعلون المنكرَ فيها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

اعتدادُ المُنحرفين بأنفسِهم، لا يمنَعُهم من وقوعِ العذابِ عليهم

عبّرَ بلفظِ ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ للإشعارِ باعتدادِهم بأنفسِهم وبقُدرتِهم على فعْلِ ما يَشتهون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المدينةَ فيها المؤمنون والكافرون.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/315.

نُكتةُ مَجيءِ الحالِ في ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ؛ لإفادَةِ التَّجَدُّدِ في استبشارِهم مُبالَغَةً في فرحِهم حينما عَلِموا أنَّ رِجالًا غُرَباءَ حَلّوا ببَيْتِ لوطٍ عليه السلام فَفَرِحوا بذلك لِيَغْتَصِبوهُمْ كَعادَتِهِمُ القبيحةِ المنافرةِ لوصْفِ الإنسانيَّة، ففي التّعبيرِ إشعارٌ بشدَّةِ رغبتِهم في طلبِ المُنْكر[1]، ولمّا جاء الفعلُ المضارعُ على معنى الحال وكان الكلامُ في سياق الذّمِّ أفاد أنَّ استبشارَهم بالمعصيةِ الشّاذّةِ سببٌ لاستحقاقِ العذابِ ودليلٌ على صدْقِ الوعيدِ عليهم، فيكونُ الذّمُّ على مجيئِهم مُسْتَبشرين لفعلِ المعصيةِ القبيحةِ المُنكرة.

الاسْتِبشارُ بالشّذوذِ، قُبحٌ ومَفسدةٌ وانتكاسٌ

دَلالةُ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

يحتملُ أن تكونَ الصّيغةُ للمطاوعةِ من بشّرَ فاستبشرَ، ففيه إشعارٌ بأنَّ هناك من أخبرَهم بوجودِ غرباءَ عندَ لوطٍ عليه السلام، على طريقة التّبشيرِ، والمعنى بشّرهم فاسْتَبشِروا، ويحتملُ أن تكونَ السّين والتّاءُ للمبالغةِ في استبْشارهم، وكلا الوجهَيْن يُفيدان المبالغةَ في ذمِّهم.

التَّواطُؤُ مع المُنْحرفين، له حُكمُ مَعْصيتِهم وقُبحِ فعْلِهم

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

أفاد التّعبيرُ بـ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بدلالة ظاهرِ اللّفظ فرحَهم وسرورَهم طمعًا في فعلِ الفاحشةِ، كما أفاد بلازمِه على طريق الكنايةِ أنَّ مجيئَهم كان على وجهِ السّرعةِ؛ لأنَّ الاستبشار بأمرٍ يقتضي الإسراعَ للوصول إليه عادةً، ودلَّ على سُرعتِهم في المجيء قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، والمرادُ الجمعُ بين دلالة اللّفظِ ولازمِه، ففيه ذمٌّ لهم كذلك على سُرعتِهم إلى فعلِ القبائحِ.

الإسراعُ إلى المَعصيةِ منَ القبائحِ المُستهجنةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/74، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.